غسان كنفاني

يستأنف عمله

شوقي بغدادي

ما من مَرّةٍ استمعتُ إلى لحنٍ ناقص، أو طالعتُ قصيدةً غيرَ مُنجزَةٍ أو قرأتُ روايةً لم يُكملْها صاحبُها ثمَّ ماتَ دون ذلك إلاّ أخذتني عاطفتان آسرتان: إحداهما الأسى على الوليد الذي لم يكتمل، والأُخرى الفضولُ لمعرفة سببِ عدمِ إنجاز ذلك العمل. فإذا كان مردُّ ذلك إلى الموت المباغت فلا بدَّ أن يُراوِدَني فضولٌ أكبرُ حيالَ التصوّر الذي يلخّصه هذا السؤال: تُرى لو عاش ذلك المبدعُ وتابع عملَه إلى نهايته فكيف كان سيُتمُّهُ؟.

طرحتُ على نفسي هذا السؤال حين قرأتُ روايةَ «كليم سامغين» لمكسيم غوركي التي ماتت قبل إنجازها، وروايةَ «نينوتشكا» لدوستويفسكي التي انقطع عن كتابتها عامداً بسبب خلافه مع الناشر، وحين أَصغيتُ إلى «السمفونيّة الناقصة» لشوبرت التي وقف بها مؤلِّفُها عند مطلع الحركة الثالثة بسبب الموت الذي داهمه وهو بعدُ في ريعان الشباب.

تكرّر الأمر مع غسّان كنفاني حين قرأت قصصَه الثلاث: **العاشق والأعمى والأطرش**، و**برقوق نيسان** التي استشهد قبل إنجازها، وأعدت قراءتها أكثر من مرّة وكنت في كل مرّة أغتني بفكرة جديدة حتّى لقد بات أمرُها هَاجِساً ملحّاً مثيراً جديراً حقّاً بأن أجلوَ أبعادَه للآخرين.

سألتُ نفسي، بالطبع، كيف كان غسّان كنفاني يعمل معاً في نصوص مختلفة ثلاثة مع أنَّ العادة السائدة هي أن ينصرف الروائيُّ إلى روايته فلا يتركها إلى غيرها حتّى يُتمَّ ما بين يديه، إلاّ فيما نَدَر. حتّى إنَّ بعضَها يُوحي بأنَّ العمل مخطَّطٌ له منذ البداية أن يتحوّلَ إلى رواية طويلة ملحميّة كما في رواية **العاشق** التي بدأ بكتابتها منذ عام ١٩٦٦، أي قبل مصرعه الدراميّ بستِّ سنوات، الأمر الذي دفع لجنة تخليده إلى أن تقول في التوضيح الذي قدّمتْ به لتلك الروايات بأنّ هذه القصّة - أي **العاشق** - «قد تكون هي الملحمة التي كانت دوماً في ضمير غسّان كنفاني لتأريخ الثورة الفلسطينيّة منذ مطالع القرن وعبر السنين اللاحقة والتي أستمع من أجلها إلى عشرات القصص من أفواه أبطالها..». وإنّها لكذلك حقّاً، إذْ إنَّ طبيعة الأحداث المفتوحة زمنيّاً في تلك القصّة على بدايات الصدام التقليدي بين المحتلّ البريطاني وأهل البلاد عبر شخصيّة متمرّدة أفّاقة غير مثقّفة؛ كلّ هذا الأفق التاريخي، البعيد نسبياً، والمفتوح على سَعَتِهِ ينبئ بأنَّ العملَ ملحميٌّ أصلاً. ولكن السؤال يبقى مطروحاً: لماذا توقّف غسّان عن الكتابة فيه، ولماذا أشركَ فيه نصوصاً أخرى كان من الممكن تأجيلها؟.

وفي قصّة **الأعمى والأطرش** ما يشير أيضاً إلى نَفَسٍ طويل في متابعة الأحداث عبر التحوّلات التي تعرّض وسوف يتعرّض لها صاحبا العاهتين وصولاً إلى خلقِ قناعة كافية بالمعجزة التي سوف تقع والتي أَلمع إليها في الأسطر الأولى من القِصّة.

هذا النَّفَسُ الطويل في الكتابة الذي لم يستسلم له غسّان في رواياته السابقة والمتميّزة بقصرها؛ هذا النفس الطويل الجديد عليه كان من الممكن أو من المخطّط له أن يغدو الإطارَ الفسيحَ الذي سوف يحتوي رواياتِه الجديدة ويؤكّد النقلةَ النوعيّة التي كان غسّان يتطلّع إليها.

ولا تخرج قصّة **برقوق نيسان** عن هذه النقلة الجديدة في فنِّ القصّ لديه، إذ يبدو جليّاً أنَّ اهتمامه بتقصّي الخلفيّات الاجتماعيّة والسياسيّة للأبطال في متنِ السرد القصصي وفي هامشه يشير أيضاً إلى نوايا الكاتب في صنع عمل روائي طويل النَفَس.

ليس ثمَّة ما يوحي إذن بأنَّ «غسّان» كان غيرَ راضٍ عن هذه الأعمال أو أنَّ عدم رضاه هو السبب في عدم إنجاز أيٍّ منها.

كما كان واضحاً في كلِّ نصٍّ اهتمامُ الكاتب بابتكار تقنيّاتٍ في الكتابة مختلفة عن تقنيّات النصِّ الآخر. وهذا ما يؤكّد أنَّ هذه النصوص كانت محاولاتٍ جدّيةً في الإبداع والابتكار وتجاوز الذات، مع أنّه في أعماله الروائيّة المكتملة قطع شوطاً واسعاً في التجريب، وصار ضرورياً في اعتقاده - وهو المغرم بالتجديد - اكتشافُ طرائقَ أخرى في العرض القصصي بعد أن جرّب الترميزَ الواقعي في **رجال في الشمس**، وتنويعَ الأصوات مع تقاطع الأزمنة المتوافقة في **ما تبقّى لكم**، وما يشبه التسجيليّة أو الوثائقيّة في **أم سعد**، وتداخل الأزمنة بين الحاضر والماضي طوال السرد في **عائد إلى حيفا**. كان لا بدَّ إذن لغسّان كنفاني المسكون بالإبداع والأصالة والتحديث من أن يمضيَ بعد كلّ هذا في طريق التجريب إلى مداه. وهكذا نجد أنفسنا في هذه النصوص غير المنجزة حيال تقنيّات مختلفة كثيراً أو قليلاً ولكنّها ليست هي ذاتها فيما سبق وقرأنا له.

ففي **العاشق** يلجأ إلى عرضٍ قصصي يقوم على التقابل بين الشخصيّات سواءٌ في السرد أم في المونولوج الداخلي دون أيّة إشارة تمهّد أو تساعد على هذا الانتقال، حتّى ليكاد يختفي الراوي الذي لا يتدخّل إلاّ قليلاً تاركاً للشخصيّات وحدها أن تتقابل وأن تعرض قصّتها بشكل ترجمة ذاتيّة مرةً أو مونولوج داخلي مرّةً أخرى، وهو أسلوب لم يستخدمْه في رواياته السابقة.

وفي **الأعمى والأطرش** يلجأ إلى عرضٍ قصصي مُشابه، لولا أنّه يخلو تماماً من تدخّل الراوي ويتوزّع بانتظام بين الشخصيّتين الأساسيّتين اللتين تتناوبان في العرض القصصي عبر فصول متتابعة وموزّعة بالتساوي بينهما مع إدخال فصول من المناجاة الفكريّة والعاطفيّة من حين لآخر، وهذا ما لا نجد له مثيلاً في رواية **العاشق**.

أمّا في **برقوق نيسان** فيعود غسّان إلى السرد العادي الممزوج بالوصف والحوار، ولكنّه يعتمد على هوامش مطوّلة في أسفل الصفحات تَرِدُ كمعلومات تاريخيّة مُساندةٍ لمصداقيّة الواقعيّة في الأحداث الجارية من جهة، وخلق ما يُسَمّى برواية رديفة للرواية الأصليّة. وهكذا تبدو الرواية روايتين: واحدة في المتن يَقُصُّها الراوي، وأخرى في الهامش يقدّمها المؤرّخ داعماً المتنَ. ومن هنا يبدو أنّ هناك أكثرَ من كاتب قد شارك في صنع الرواية كعمل متكامل، أو أنّ الكاتب نفسه يتحوّل مرّة إلى مؤرّخ وأخرى إلى قصّاص مازجاً ببراعة بين الوثائقيّة ـ كتاريخ حقيقيّ متداول ـ والسرد الفنّي ـ كعمليّة إبداعٍ أدبي ـ حتّى ليصعُب التفريق بين المؤرّخ والفنّان.

هذه النصوص إذن كانت كلُّها قيدَ الإنجاز، وكان الكاتب راضياً عنها. وما دُمنا لا نَعرفُ على وجه الدقّة لماذا كان يعمل فيها معاً دون أن يُنجز أيّاً منها، فلا بدَّ من الافتراض أنه لو عاش لتَابَعَ الكتابةَ فيها جميعاً ونَشَرَها على الناس رواياتٍ مكتملةً. وهنا يبرز السؤالُ الأساسيُ: «كيف كان غسّان كنفاني سيُتِمّ هذه الروايات؟ وهل من الممكن التنبّؤ بالأحداث التي كانت ستقع، وبالتقنيّة التي كان سيستخدمها لإكمال عمله؟»

أجيبُ الآن عن هذا السؤال، فأقول: «نعم!. هذا ممكن»، وليس على المرء إلّا أن يُمعنَ الرؤية ويقرأ النصَّ المكتوبَ قراءةً نقديّة معمّقةً كي يتخيّلَ بشكلٍ مقبول التتمّةَ المحتملةَ لكلّ روايةٍ على حِدَة.

ففي **العاشق** يبدو أنّ الأحداث سوف تتلاحق في اتجاه الرؤية الموسّعة لتاريخ الثورة الفلسطينيّة. وما دام البطلُ إنساناً بسيطاً وأفّاقاً ولكنّه مُكتَنِزٌ بالخميرة الوطنيّة، فإنّ الأحداث التي لم تكتبْ سوف تتابع كي تحيطَ بعمليّة التحوّل الكبرى للوعي الشعبّي عامّةً من إطاره الفرديّ الضيّق إلى إطاره الجماعي الواسع، وعبر كلّ ذلك سوف تتفجّرُ الثورةُ تلو الأخرى إلى أن تصبّ في خاتمتها المعروفة بعد انتقال الثورة من الاستناد إلى المكان ـ البيئة والأرض الثابتة والمساندة الشعبيّة ـ إلى فقدان المكان وبالتالي الاستناد إلى الزمن وحدَه في بلاد الشتات حيث المساندةُ غير مضمونةٍ أو غيرُ ثابتةٍ أو غيرُ كافية. كلُّ هذا سوف يُكتب حَسْبَ التقنيّاتِ التي ذكرناها قبل قليل في تحليلنا الموجز لتطوّر هذه التقنيّات في الروايات الثلاث.

ومثلها رواية **الأعمى والأطرش**. فإنّ الأحداث المكتوبة توحي بأنّ الأحداثَ الأخرى التي لم تُكتبْ كانت ستوجِّه السياقَ العامَّ نحو معجزةٍ تحدثُ ويستردُّ بها الأعمى بَصَرَه والأطرشُ سَمْعَه من خلال التوفيق بين الرؤية الدينيّة الشعبيّة (الإيمان بالأولياء الصالحين) والكفاح المسلّح (تحوّل الناس البسطاء إلى فدائيين وسياسيّين محترفين). ولن يكون صعباً بعد ذلك التنبّؤُ بالتتمّة المناسبة للرواية الثالثة **برقوق نيسان** مضموناً وشكلاً.

أقول كلَّ هذا كي أطرحَ الفكرةَ التالية: «أليس ممكناً ـ وقد بات مستحيلاً الاعتمادُ على الكاتبِ نفسِه ـ أن يُكملَ هذه الأعمالَ كاتبٌ آخرُ أو كتّابٌ آخرون؟».

وأجيبُ هنا أيضاً بالإيجاب، فأقولُ إنّ هذا ممكن، غير أنّه صعبٌ بالتأكيد، وصعوبتُه ناجمةٌ عن أنّ المؤلّف قد غادر الدنيا ولم تعدْ متاحةً الاستفادةُ منه في مراجعةِ النصوص ومناقشتها. إنّ كتابةَ النصوص المشتركة بين كاتبيْن ـ أو أكثر ـ ليس بِدْعاً في الكتابة؛ فلقد صنع ذلك كثيرون في بلاد العالم أجمع مثل الأخوين «غونكور» في الرواية، والأخوين رحباني في المسرح الغنائي، وعبد الرحمن منيف وجبرا ابراهيم جبرا في رواية **عالم بلا خرائط**، وعبد السلام العجيلي وأنور قصيباتي في رواية **ألوان الحبّ الثلاثة**. فلماذا لا يَتمُّ ذلك مع كاتب موهوب مشهور مثل غسّان كنفاني ارتبط اسمُهُ بقضيّة كبرى مثل القضيّة الفلسطينيّة، وصار رمزاً لمعانيَ نبيلةٍ مثل المقاومة والشهادة؟!..

في ضوء هذه الرغبة يبدو لي ممكناً جدّاً تأليفُ لجنةٍ متخصّصة لهذا الغرض مؤلّفةٍ من النقّادِ العرب المتميّزين للإشراف على مسابقةٍ قوميّة تدعو الكتّابَ العرب عموماً والفلسطينيّين خصوصاً إلى إكمال هذه الأعمال الروائيّة التي تركها غسّان كنفاني دون إنجاز، أو إلى إكمال أحدها على الأقل، واختيارِ أفضلِها كي تُنشرَ مع ما تركه غسّان غير منجزٍ.

صحيحٌ أنّ الإبداعَ الفنّي عملٌ ذاتي في الأصل، غير أنّ معالجة «مشكلة الذاتيّة» في الأعمال المشتركة ممكنةٌ ضمن حدود معيّنة بالطبع لا بالمعنى المطلق للكلمة، وبخاصّة بين كاتبيْن ما يزالان على قيد الحياة وقادريْن على التواصل والحوار والتقارب في الرؤية والأداء. ولكن عدم وجود غسّان كنفاني حيّاً بيننا يجب ألّا يمنعَنا من تنفيذ هذه المهمّة المفيدة على المستويين الفنّي، والقوميّ. ذلك لأنّ مجرّدَ طرح مثلِ هذه المسابقة سوف يفجّر بالتأكيد رؤىً واجتهادات في مضمارِ الإبداع الفنّي ـ فرديّاً أو جماعيّاً ـ هي غاية في الأهميّة. كما أنّ إعادة هذه الروايات إلى ساحة القراءة والاهتمام بها من جديد استعادةٌ في الوقت ذاته لكلِّ المعاني النبيلة التي يجسّدها مصرع غسّان كنفاني بالطريقة الفاجعة الغادرة التي لجأ إليها أعداءُ الكلمة الجميلة المؤثّرة تخلّصاً من قائلها. ولكن ها هو غسّان يُبعثُ حيّاً وقد تقمّصتْ روحُه مخيّلاتِ رفاقِه المبدعين كي يستأنفَ إبداعِه وكأنّه لم يمتْ على الإطلاق..